

ندوة إذاعية - إذاعة دمشق - صور من حياة التابعين - الدرس ٩ : التابعي عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٢-١٩٩٩-٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.
فضيلة الشيخ التابعي الجليل، الشخصية الفذة، ويسعدنا أن نتابع عنها اليوم الشيء الجديد و
المفيد.

الأستاذ جمال

ما كاد التابعي الجليل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ينفض يديه من تراب قبر سلفه سليمان بن عبد الملك، فقد كان يبتغي أن يصيّب ساعة من الراحة بعد ذلك الجهد الجاهد الذي كان فيه منذ وفاة الخليفة، لكن عمر بن عبد العزيز ما كاد يسلم جنبه إلى ماضجه حتى أقبل عليه ابنه عبد الملك، و كان يومئذ يتجه نحو السابعة عشرة من عمره، و قال: ماذا تريد أن تصنع يا أمير المؤمنين؟ فقال: أيبني أريد أن أغفو قليلاً، فلم تبق في جسدي طاقة، فقال: أتغفو قبل أن تردد المظالم إلى أهلها يا أمير المؤمنين، فقال: أيبني إني سهرت البارحة في عمك سليمان، و إني إذا حان الظهر صليت بالناس و رددت المظالم إلى أهلها إن شاء الله تعالى، فقال: ومن لك يا أمير المؤمنين أن تعيش إلى الظهر؟ فأهابت هذه الكلمة عزيمة عمر، و أطارت النوم من عينه، وبعثت القوة و العزم في جسده المتعب و قال: ادن مني أيبني، فدنا منه، فضممه إليه و قبل ما بين عينيه، و قال: الحمد لله الذي أخرج من صلبي نمن يعييني على ديني، ثم قام و أمر أن يُنادي في الناس: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فمن عبد الملك هذا؟ وما خبر هذا الفتى الذي قال عنه الناس: إنه هو الذي أدخل أباه في العبادة، و سلكه مسالك الزهادة "

أيها الإخوة، كان لعمر بن عبد العزيز خمسة عشر ولداً، فيهم ثلات بنات، و كانوا جميعاً على حظ موفور من التقوى، مقام كبير من الصلاح، لكن عبد الملك كان واسطة عقد إخوته و كوكبهم المتألق، لقد كان أديباً أربينا له سن الفتياً و عقل الكهول، ثم إنه نشأ في طاعة الله جل و عز منذ نعومة أظفاره، فكان أقرب الناس سمتاً لآل الخطاب عاملاً و أشبههم بعد عبد الله بن عمر خاصة، في تقواه الله و تخوفه من معاصيه، و تقربه إليه بالطاعة.

حدثنا ابن عمِه عاصم فقال: وفدت على دمشق فنزلت على ابن عمِي عبد الملك وهو عزب فصلينا انلعشاء و آوى كل منا على فراشه، فقام عبد الملك إلى المصباح فأطفأه، و أسلم كل منا جفنيه إلى الكري، ثم إني استيقظت في جوف الليل فإذا عبد الملك قائم يصلي في العتمة، وهو يقرأ قوله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَاتُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَاتُوا يُمْتَعَونَ (٢٠٧)﴾

[سورة الشعراء]

فما راعني منه إلا أنه كاد يردد هذه الآية وينشج نشيجاً مكبوتاً، يقطع نيات القلوب، و كان كلما فرغ من الآية عاد إليها حتى قلت: سبقته البكاء، فلما رأيت ذلك قلت: لا إله إلا الله، الحمد لله، كما يفعل المستيقظ من النوم، لأنقطع عليه البكاء، فلما سمعني سكت، فلم أسمع له حسناً.

تتلذذ هذا الفتى العمري على أكبر علماء عصره، حتى تملى من كتاب الله عز وجل، وتضلّع بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتفقه في الدين، هكذا على حداثته، من الطبقة الأولى من فقهاء أهل الشام في زمانه.

لقد روي أن عمر بن عبد العزيز جمع قراء الشام وفقهاءها و قال: إني قد دعوتم لأمر هذه المظالم التي في أيدي أهل بيتي، فما ترون فيها؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ إن ذلك أمر كان في غير ولايتك، وإن وزر هذه المظالم على من غصبهها، فلم يرتح إلى ما قالوا، فالتفت إليه أحدهم من كان يرى غير رأيهم و قال: أبعث يا أمير المؤمنين إلى عبد الملك فإنه ليس بدون من دعوت علماء أو فقهاء أو عقلاً، فلما دخل عليه عبد الملك قال له عمر: ما ترى في هذه الأموال التي أخذها بني عمّا من الناس ظلماً و قد حضر أصحابها، وجعلوا يطلبونها، و قد عرفنا حقهم فيها، فقال: أرى أن تردها إلى أصحابها ما دمت قد عرفت أمرها، وإنك إن لم تفعل كنت شريكاً للذين أخذوها ظلماً، فانبسطت أسارير عمر وارتاحت نفسه.

في الواقع زهد الأمانة التي دائمًا يحث عليها القرآن الكريم، وتابعتها السنة الكريمة، فضلاً عن ذلك آثر هذا الفتى العمري المرابطة على التغور والإقامة في إحدى المدن القريبة منها على البقاء في بلاد الشام، فمضى إليها وخلف وراءه دمشق ذات الرياض النصرة، وظلل الظليلية والأنهار السباحة، وكان أبوه على الرغم من كل ما رفعه من صلاحه وتقاه شديد الخوف عليه من نزعات الشيطان، كثير الغشاق عليه من نزوات الشباب، حريصاً على أن يعلم من أمره كل ما يجوز له أن يعلم، وكان لا يغفل عن ذلك أبداً و لا يهمله.

حدث ميمون بن مهران وزير عمر بن عبد العزيز وقاضيه ومستشاره فقال: دخلت على عمر بن عبد العزيز فوجنته يكتب رسالة إلى ابنه عبد الملك، يعطيه فيها وينصحه ويبصّره، ويحذرّه وينذرّه ويبشّره، وكان مما جاء فيها قوله: أما بعد فإنّ أحق من وعيّوني وفهمّ قولي لانت، وإن الله وله الحمد قد أحسن إلينا في صغير الأمر وكبيره، فاذكر يابني فضل الله عليك وعلى والديك، وإياك و الكبار و العظام أغناها من عمل الشيطان، وهو للمؤمنين عدوّ مبين، واعلم أنّي لم أبعث إليك بكتابي هذا لأمر بلغني عنك، فما عرفت من أمرك إلا خيراً، غير أنه بلغني عنك شيء من إعجابك لنفسك، ولو أن هذا الإعجاب خرج بك إلى ما أكره لرأيت مني ما تكره " قال ميمون: ثم التقى عمر و قال: يا ميمون إنّ ابني عبد الملك قد زين في عيني، وإنّ اتهم

نفسي في ذلك، وأخاف أن يكون حبي له قد غالب على علمي به، وأدركني ما يدرك الآباء من العمى عن عيب أولادهم، فسر إليه واسبر غوره وانظر هل ترى فيه ما يشبه الكبر والفاخر، فإنه غلام حديث، ولا آمن عليه الشيطان " قال ميمون: فشددت الرحال إلى عبد الملك حتى قدمت عليه، فاستاذنت ودخلت، فإذا غلام في مقتبل العمر، ريان الشباب، بهي الطلعة، جم التواضع، قد جلس على حسيبة بيضاء فوق بساط من شعر، فرحب بي ثم قال: لقد سمعت أبي يذكرك بما أنت أهل له من الخير، وإتي لأرجو أن ينفع الله بك، فقلت له: كيف تجد نفسك؟ فقال لك بخير من الله عز وجل ونعمته، غير أني أخشى أن يكون قد غرّني حسنُ ظن والدي بي، وأننا لم أبلغ من الفضل كل ما يظن، وإنني أخاف أن يكون حبه لي قد غلبه على معرفته بي، فأكون آفة عليه، فعجبت من اتفاقهما، ثم قلت له: أعلمني من أين معيشتك؟ فقال: من غلة أرض اشتريتها ممن ورثها عن أبي، ودفعت ثمنها من مال لا شبهة فيه، فاستغنىت بذلك عن فيء المسلمين، فقال: ما طعامك؟ فقال: ليلة لحم، وليلة عدس وزيت، وليلة خل وزيت، وفي هذا بлаг، فقلت له: أفلا تعجبك نفسك؟ فقال: قد كان في شيء من ذلك فلما وعظني أبي بصرّني بحقيقة نفسي، فصغرّها عندي، وحطم من قدرها في عيني، فرفعني الله عز وجل بذلك، فجزاه الله من والد خيراً، فقعدت ساعة أحدهه وأستمتع بمنطقه فلم أر فتي كأن أجمل وجهها، ولا أكمّل عقولاً ولا أحسن أدباً منه، على حداثة سنّه وقلة تجربته.

هذا عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز كان ولداً صالحاً تقىً عفيفاً، وكان مجاهداً، وكان في موضع ثقة من أبيه، ومع ذلك كان أبوه يخشى عليه أن يستطع فأرسل من يراقبه عن بعد؟ وما الخبر عن هذا الفتى الذي قال عنه الناس: إنه هو الذي أدخل أباء في العبادة، لقد كان أديباً أربياً له سن الفتى وعقل الكهول، ثم إنه نشأ في طاعة الله جل وعز منذ نعومة أظفاره، فكان أقرب الناس سمتاً إلى آل الخطاب عامة، وأشبههم بعدد الله بن عمر خاصة، في تقواه الله وتخوفه من معاصيه، ونقربه إليه بالطاعة.

هذه الصور المشرقة موصولة في هذا التابعي الجليل عبد الملك بن عبد العزيز، أهلاً وسهلاً بسماحة الشيخ محمد راتب النابلسي الذي كان ضيفاً عزيزاً على هذه الحلقة الجديدة من صور من حياة التابعين، أهلاً وسهلاً بك، وإلى اللقاء إن شاء الله، شكراء، أهلاً بكم ومرحباً،

والحمد لله رب العالمين